علي وجيه يكتب: ما بعد الثلاثين ..خذ الحكمة من صاحبة الحانة

شخصياً، أنا مستمتع في كلّ يوم، للإيقاع الهادئ الذي أمرّ به شخصياً، منذ أن عبرتُ سنّ الثلاثين، حتى ليبدو أنّ ا أو الطبيعة أو الوجود، يهبُكَ طريقة جديدة بالتفكير فور إنهاء احتفال عيد الميلاد، حيث ستصبح "ثلاثينياً جاداً"، حتى إن كنتَ قبلها بـ٢٤ ساعة مجرّد شاب يفعل كلّ شيء.

أسوأ طرق التفكير المتعلقة بالعشرينات من العمر، هو نزعةُ إصلاح العالم، أو "الوجود"، حيث لا يعرفُ الفرد أنّه حرفياً "لا شيء"، وفي أفضل الأحوال – خصوصاً في مناطق الشرق الأوسط – أنّه عنصر غير مؤثر بالغالب، وأنّك دون نفوذ، أو وجود سياسيّ، أو تسليح، أو إعلام، لن تكون سوى مجرّد نكهة بهارات إضافية على قِدر البلاد، ولستَ القِدر.

الوصول للنتيجة هذه يكون مُضنياً، أشبه بنملة تحاولُ تسيير قطار، ولا ترتضي أن تقنع نفسها بحيزها الفعليّ، والمشكلة حتى إن اجتمع الملايين من النمل، ليجبروا سائق القطار على طريقةٍ معيّنة، فإنّ ذلك ربّما يشمل تغييراً جزئياً، لكنه يعود للانتظام بسبب حجم الكتلة التي منحها القدر لسائق القطار، والقطار، وغير ذلك من الكتل العملاقة، وليس للصدفة التي جعلت للنمل متمكناً من التأثير الوقتيّ على القطار.

لاحظوا النبرة اليقينيّة التي يحملها العشرينيّ، النبرة الأبوية، التي ترغب بـ"تمزيق الكفن"، لاحظوا الأمل العملاق الذي تزرعه جملة مثل "نحن الشباب لنا الغدُ"، بينما لم يكن هناك غدٌ لأيّ شباب، سياسياً أو حتى اقتصاديا، يجب أن تكون بحيّز آخر، الأمر لا يتعلق بالسن، بل بالحجوم.

هذه النزعة، نزعة إصلاح العالم، تبدأ بعد إدراك أنّ للعالم ربّاً يحميه، وله مؤثراته وكلّ أشيائه التي تغيّر فيه يميناً ويساراً، لكن الفرد بما هو فرد، ليس سوى عنصر إضافيّ بسيط، فلم يعد "أصغر وحدة في بناء المجتمع" المكوّن من الجماعات، ولم يعد بكل تأكيد "أثمن رأسمال في الوجود"، كما تقول السرديّة الشيوعيّة الشهيرة!

قبل فترة، أوقفني شاب مهذب في المقهى، سأل بضعة أسئلة، كان الشاب من ذوي الشوارب الخضر النابتة حديثاً، كان "فتى" أكثر من كونه شاباً، كنتُ أتوقع أنه سيسأل عن كتاب، أو شيء آخر، لكنه سألني

تقريباً ٨ أسئلة من صميم العملية السياسية العراقية وتغييراتها اللحظيّة، هل سيُجدّد للكاظمي؟ ما هي حظوظ الحلبوسي؟ هل برأيك أن قوى الدولة ستحظى بقوّة أم أن لغة الأرقام هي ما سيحكم؟ ما خطوة الصدر المقبلة؟ الصراع – الكردي – الكردي هل سيخرّب معادلة التقاسم في كردستان؟ وغير ذلك.

كان من المفترض أن يحشو هذا الشاب اللطيف جمجمته بما يتعلّق بنفسه، فهو وأنا لسنا سوى نملتين على متن هذا القطار، ومعرفة أن هذا السائق أو ذاك أين سيسير، لن يغيّر شيئاً من حدوث الأشياء.

يتصاغر الشعور بالعالم تدريجياً، لن تفلح بتغيير شيء في مقال، ولا منشور، أو احتجاج، تريند القتيل بدأ يتحول لنصف نهار، ثمّ شاهدنا مَن يُقتل دون أن يتحوّل لتريند، الكتابة لن تزيد إلاّ جحيمك الشخصيّ جحيماً، متأخراً عمّا يبني ذاته، ستوقف حرق دمك بسبب وزارة الصحة، لتنتبه لصحتك الشخصية، لن تعود مهتماً جداً عمّا كنتَ في السابق بالعلاقة بين المكونات، لكنك ستنظّم علاقتك مع الآخرين، وهكذا، ستصغّر الملفات ويتحوّل البلد، بعد الثلاثين، إلى حيّز بيتك المُستأجر، وأن مواطنيك الذين يهمّونك فعلاً، هم أفراد عائلتك.

لن تصل هذه النتيجة قبل أن تشبع من الخدوش، والارتطامات، والصدمات، ثمّ حين تصل النتيجة، ستعرفُ أنّ كاتب "ملحمة كلكامش" الخالدة، قد قالها على لسان سيدوري، صاحبة الحانة، لكنك لم تنتبه:

"إلى أين تسعى يا كلكامش

إنّ الحياة التي تبغي لن تجد

إذ لمّا خلقت الآلهة البشر قدّرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة.

أما أنت، يا كلكامش، فاجعل كرشك مملوءاً

وكن فرحاً، مبتهجاً ليلَ نهار

وأقم الأفراح في كلّ يوم من أيّامك

وارقص والعب ليل نهار

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسلْ رأسَكَ، واستحم في الماء

ودلّل الطفل الذي يُمسك بيدك

وافرِحْ الزوجةَ التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشر".